تقديم

مساهمة في مستقبل الأمة الكبرى

"نحن حصادُ زرعِ السابقين،
وستصبح الأجيال اللاحقة حصاد
زرعنا وثمرة جهدنا وسعينا".

(فتح الله كولن)

تبوّأَ الأستاذ محمد فتح الله كولن مكانةً متميّزة في الحياة العلمية والفكرية؛ بما أنتجه من مؤلّفاتٍ بعيدة الأغوار تأثرت بها المشاعر وتفاعلت معها العقول، فغدا أصحابها يُنشئون مؤسّسات تعليميّة لا حصر لها على مستوى العالم، ولـمّا عُهِدَ إليّ بإعداد مقدّمةٍ لهذا الكتاب؛ قمتُ بقراءته مرّةً واحدةً من أوّله إلى آخره، فأدركتُ أن هذا الأمر ليس بالسهل اليسير؛ لأن موضوع التربية غزير المواد والمفردات، ولقد تناول الكتابُ إجمالًا معظم المسائل المتعلّقة به، وأُدرجت بعضُ الأفكار القيّمة في إطار الآيات والأحاديث، وليس بالإمكان لفتُ انتباه القارئ إلى المحتوى بأكمله عبرَ مقدّمةٍ صغيرة، ويصعب أيضًا ترجيح موضوعٍ من موضوعات هذا المحتوى على الآخر؛ حيث إنّ جميعها مهمّة، ورغم هذا فقد رأيت من المناسب لفت الأنظار إلى عددٍ من المسائل التي ركّز عليها المؤلّف وكررها بوعيٍ وانتظامٍ، وإلى بعض النقاط التي شعرتُ بأهمّيّتها والحاجة إلى الإشارة إليها؛ بما يتناسب مع أسلوب المؤلّف.

أما الأمر الذي أؤكّد عليه بدايةً فهو أن اسمَ "مِن البذرة إلى الثمرة" الذي عُنونَ به هذا الكتاب الرائع الزاخر بالموضوعات والمسائل الدقيقة لهو اسمٌ متواضعٌ جدًّا، ولذا أريد في مستهلّ الكلام أن أستشير القرّاء في اسمٍ قد خطر على بالي -دون تكلّفٍ واستشرافٍ منّي- عند مطالعتي لهذا الكتاب ورأيت أنه أنسب، وإن لم يُكتب على الغلاف الخارجي؛ ألا وهو "مساهمة في مستقبل الأمة الكبرى"، وإذا ما نظرنا إلى هذا الكتاب على اعتبار أنه مؤلَّفٌ لرجلٍ حركيّ عمليّ يقوم بمشروعاتٍ بعيدة الأجل لخدمة مصلحة الأمّة ومستقبلها؛ عندها نفهم أنّ الاسم المقترح أنسب من اسمه الحالي.

وفي هذا الإطار ليس من الإفراط والمبالغةِ اعتبارُ هذا الكتاب بدايةَ حركةِ تجديدٍ نشِطةٍ على مستوى تركيا على الأقل، ويدعم هذا الاعتبارَ الجملُ التالية التي نصادفها بين عبارات المؤلّف: "الأسرة هي أهمّ ركنٍ في المجتمع، وسلامة هذا الركن تعني سلامة الأمّة والدولة، وبناءً على ذلك فلا ينبغي أن نترك هذا الركن الركين للأمة والدولة دون خطّةٍ أو نظام".

وأريد أن أؤكّد مكرّرًا على وجود بونٍ شاسعٍ وفرقٍ واسعٍ بين هذا الكتاب وكتب التربية الأخرى التي لا تنسجم في كثيرٍ من فقراتها مع عالمنا وظروفنا الاجتماعية، وذلك لاكتفاء أصحابها بالاقتباس عن الكتّاب الغربيّين، ولم يستطع أغلبهم استيعابَ مسألة التربية بقدر الكفاية.

والسبب الرئيس في توقُّفنا عند اسم الكتاب في البداية هو محتوى الكتاب، إذ الكتاب ينطوي على كثيرٍ من الأفكار القيّمة التي يسهلُ على القارئ فهمها واستيعابها، وتدخل ضمن حدود إمكانياته وقدراته.

وأنبّه هنا أن مسألة التربية قد وُضعت بالكتاب في محتوى يتناسب مع ظروفنا وبالصورة التي لا بدّ أن نفهمها، والغاية من التربية كما سيلمس القارئ ليست مقيّدةً بالوصول إلى أشخاص مثاليّين على المستوى الفرديّ والأسريّ، بل إن الغاية الرئيسة كما أوضح الأستاذ فتح الله بعبارته البديعة: "المساهمةُ في مستقبل الأمة، وهي غايةٌ ساميةٌ يجب على الجميع أن يتغيّاها، وهي مرتبطةٌ بوجود الفرد المثاليّ والأسرة المثالية"، وبناءً على هذه الفكرة تصدّر هذا الكتاب موضوع "الزواج والأسرة"، ثم تبِعَتْه المسائل المتعلّقة بالتربية.

التصنيف

وتصنيف الكتاب أيضًا ملفتٌ للنظر، فمسألة التربية لا تعني تربيةَ الأطفال الذين وصلوا إلى سنٍّ معيّنةٍ فقط، ولا يجب أن ننظر إليها على أنها حادثةٌ منفصلةٌ عن كلّ مناحي الحياة، بل إنها كما ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مسيرة طويلةٌ يتخلّلها كثيرٌ من المراحل بدءًا من الأوصاف التي ينشدها الشخصُ في المرأة التي ستكون أمًّا لأبنائه وحتى الوفاة، هذا ما يقتضيه مفهوم التربية.

وقد تعرض الكاتب في مدخل الكتاب إلى بعض المسائل العامّة حتى يُقنع القارئ بأهمّيّة وشموليّة مسألة التربية، فعلى سبيل المثال تضمّن هذا القسم الذي يبدأ بـ"مفهومنا الأخلاقيّ" بعضَ العناوين الجانبيّة التي تبدو وكأنّها بعيدةٌ عن بعضها مثل: تدهور الأمم، والأخلاق العالية، وزينة الحياة الدنيا، والإنسانيّة في مرتبة أعلى علّيّين... إلخ، أعقبتها سلسلةٌ من المعلومات المكمِّلة لبعضها حول أهمّيّة التربية؛ مدعَّمة بأدلّة من الكتاب والسنة.

ثـم تلا ذلـك فصولٌ تنـدرج ضمن قضايـا التربية ومراحلهـا؛ بعضها أهمّ من الآخر، تجذب الانتباه على قدر أهمّيّتها، مثل: الزواج، والأسـرة، والحساسـيّة فـي التربيـة، والتربيـة الدينيّة للطفـل، وكيف نحـدّث أبناءنا؟ وأبعاد التربية، ومقارنة بين التربية القرآنيّة وغير القرآنيّة.

وبعد هذا الإيضاح اليسير أريد أن أنوّه بمسألتين تشكّلان أهمّيّةً كبيرةً في هذا العمل.

أهمّيّة الأسرة

يـرى الأسـتاذ الفاضل محمـد فتح الله كولن أن الأسـرةَ هـي أوّل ما يدور بخلد الإنسـان عنـد الحديث عن التربية؛ لأن "الأسـرة هي أوّل لبنةٍ في التربية والتعليم، وأول كتّاب وأول مدرسة"، و"لا بدّ أن تبدأ التربية من العشّ حتى يُكتب لها البقاء والاستمراريّة، فلا يمكن أن نتصور التربية في مجتمعٍ دون أن يؤسَّـس العشُّ فيه على أُسُـس التربية"، أما إذا كان الأمر متعلّقًا بالجيل الذي يؤسّس المستقبل فليست كلُّ أسرة جديرةً بالقيام بهذه العملية، لأن "الأجيال المثاليّة تحتاجُ عشًّا مثاليًّا في البداية"، "والأسرة هي أهمُّ ركنٍ في المجتمـع، وسلامةُ هذا الركن تعني سلامةَ الأمّة والدولة".

ومـن هنا تحتلّ المرأة أهمّ مكانةٍ في الأسـرة الجديـرة بالاهتمام بها، ولذا:

كانـت أولى المسـؤوليات الملقاة على عاتق ربّ الأسـرة هي اختيار رفيقة حياته من "المسلمات، المؤمنات، القانتات، الصادقات، الصابرات، الخاشـعات، المتصدّقات، الصائمات، الحافظات فروجَهن، الذاكرات الله كثيـرًا"، كمـا يجـب أن يكون الأبـوان ماهرين في التربية، ولديهما شـعورٌ بالمسـؤوليّة الملقاة على عاتقهما عند تربيتهما لأولادهما، وأن يتزوّدا بما

يحتاجانـه مـن معلوماتٍ تخدم هـذه الغاية، فعلى كل من يبغـي الأبوّة أو الأمومة أن يعرف أو تعرف قدرًا ما مِن علم النفس والتربية، أو على الأقلّ المبـادئ التـي أوردها القرآنُ الكريم إجمالًا في هذا الصدد... إذن: يجب على الإنسان أن يتعرّف إلى سبل تربية النشء المثالي المستقيم.

وهذه رسالةٌ للمسؤولين أيضًا في بلدنا، فللدولة أن تسنّ نُظُمًا قانونيّةً تشـترط على المقبلين على الزواج أن يجتـازوا دوراتٍ تدريبيّةً لتزويدهما حـول التربيـة والصحّـة وتدبيـر المنـزل؛ كمـا يحـدث في بعـض الدول الأوروبّيّـة، ومـع انتظارنا لهذا مـن الدولة فعلى الأفـراد أن يقوموا بتربية أنفسـهم بأنفسـهم حتى يتحقّق هذا الأمر، ونعتقد أن هذه التوصيات التي وردت بهذا الكتاب ستجد لها صدًى واسعًا يتزايدُ بمرور الوقت.

عددُ الأطفال

ورغـم أنّ الغايـة الأولـى مـن تكويـن الأسـرة هـي دوام النسـل؛ أي إنجـاب الأولاد فـإن الكتاب يذكر أن الأهمّ مـن ذلك هو التعمّق الروحيّ والرقيّ المعنويّ والشـموليّة، وفي هذا ترويجٌ للنسـل الجيّد حتى يترعرعَ على أسـسٍ ومبادئ سـليمة، ومن ذلك قوله: "على المسـلمين أن يهتمّوا بالرقيّ المعنوي والتعمّق الروحيّ وتوثيق العلاقة بالله تعالى"، وهنا يوصي المؤلّف الجميـع بإنجاب أطفال بقدرٍ يسمح لهم بتربيتهم تربيةً مثاليّةً دون الوقوع في ورطة الأرقام والحسابات.

التفكُّر قبل التربية

ثمّةَ مسـألةٌ أخرى تُكسِـب الكتـابَ نوعًا من الإقناع وهـو أنّ الكتاب يوجّه القارئ إلى التفكّر الدائم، والمحاكمات العقليّة، والبحث في المسألة عن الأسـباب والدوافـع، والتفكير قبـل التربية يعني: التفكير في الجوانب

السلبيّة والإيجابيّة في تربية الطفل، وكيف ننظرُ إلى تربية أطفالنا؟ وكيف نُقيّم قضاء الأطفال جلّ أوقاتهم هنا وهنالك حتى ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل، وهل سنفتح أبوابنا وصدورنا لهم لو عادوا في أيّ ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ؟

إن مثل هذا التفكُّر يعدّ بالنسبة للشخص بمثابة محاسبة النفس، فهل حدّثنا أنفسنا بهذه الأسئلة! ونحن الذين لا تكفّ ألسِنَتُنا عن الحديث عن التربية، ونبذل كثيرًا من التضحيات من أجل تعليم أبنائنا؟ وهل هناك قِيَمٌ عُليا نريد أن نلقّنها لأطفالنا، هل تبنّينا ذلك وعملنا عليه؟ هل سألنا أنفسنا هذه الأسئلة، وهل أعددنا لها أجوبةً؟ فإن لم نكن على استعدادٍ للردّ عند السؤال ألا يُعتبر هذا نقصًا فينا؟

ومما يُلفت النظرَ التنبيهُ إلى هذا الخلل:

"الطبيعة الإنسانية لا تحبّ الفراغ، فإن لم تملأ قلبَ ولدك الفارغ امتلأ قلبه بالآخرين، وعندئذٍ ربما تصبح أبًا أو أمًّا لإنسانٍ ملحد دون أن تشعر".

التربية الدينية

تتبوّأ التربية الدينيّة مكانَ الصدارة في تربية الطفل، ولذا شغلت حيّزًا كبيرًا في هذا الكتاب الذي ركّز أيضًا على منهج هذه التربية ومحتواها.

فلا بدّ من تعلّم الطفل للقرآن، ولكن دراسة القرآن ليست عبارةً عن ترديد الآيات بألفاظها وعباراتها فقط، بل ينبغي أن يصاحب ذلك الحركيّةُ والتطبيق، كما أنه لا بدّ أن تسوق الطفلَ رغبةٌ داخليّةٌ لتعلّم القرآن وحفظه لا التهديدُ والترويعُ، ويجب ألا يكون تعليم القرآن عبارة عن حفظٍ مجرّد عن الفهم والتفكّر، وإنما يجب أن يقترن الحفظُ ببيان المقاصد الإلهيّة في الآيات، كما "يجب أن يُثار في الطفل حبُّ التطلُّع لتعلّم كتاب الله ﷻ"،

وفي هذا يقول الأستاذ كولن: "إنني على قناعة بأن قراءة القرآن بلا خشوع تجعل الإنسان بلا وعي".

وفي هذا السياق جاء التنويه بالأسلوب والمنهج الذي يجب أن يتبعه المعلِّم، فمثلًا جاءت الإشارة إلى ضرورةِ التفرقةِ بين الأعمار عند تلقين المعلومات الدينيّة، فالصبيّ في الخامسة عشر يختلف عن شابٍّ في الخامسة والعشرين، كما تطرّق الكتاب إلى معاملة بعض كبار السن غِلاظِ الطباع في المسجد للأطفال؛ ممّا يجعل الأطفال يرونهم كالزبانية.

أما عن أهمّ رسالةٍ في مبحث التربية الدينيّة للطفل فهي تأكيدُ المؤلِّف على ضرورة الاستفادةِ من العلوم الطبيعيّة، ناهيك عن العلوم الشرعيّة التي تُدرّس في المدارس عند التعريف بالله ﷻ، والتفسيراتُ المقنعة التي أوردها في هذا الخصوص.

ويحضّ الكتاب مَنْ يكتبون عن تربية الطفل على اتّخاذ هدفٍ حيويٍّ وإستراتيجيٍّ عظيمٍ لا سيّما في ذلك الوقت الذي باتت فيه الهيمنة لأعداء المقدّسات الذين بغوا واستطالوا لدرجة أنهم أعربوا على شاشات التلفزة عن استيائهم حتى من ذكر اسم الله في قصص الأطفال، وإننا لنأمل أن يتحرّك أولو الحماسة وفقًا لما تقتضيه هذه الرسالة.

تربية الكبار

ثمّة جانبٌ يتوافق مع غاية المؤلِّف وإن كانت لا تتوافق مع اسمه ألا وهي التركيز على تربية الكبار لا الصغار، يعني تربية المربّين؛ وهم الآباء والأمهات، ولو أن الكتاب عُنونَ بـ"تربية الآباء والأمهات" لكان هذا أليق وأنسب للمحتوى، لكن من يقدر على فهم واستيعاب هذا الاسم؟ فمن يرَون أنّ ما يفعلونه كافٍ لتربية أطفالهم -ومعظمنا من هؤلاء-

أو من لا يفكّرون ألبتّةَ في هذا الأمر فقد يعارضون هذه التسمية؛ فيظلّ تأثير المؤلَّف محدودًا، ولكن هذا لم يحدث؛ حيث أقنع المؤلِّف بدايةً الآباء والأمّهات بالمثاليّات التي يجب أن يلقنوها لأبنائهم، ثم أكّد على أنّ القدوة هي أهمّ شرطٍ لتزويد الطفل بهذه المثاليات، وقد شدّد المؤلّف في كلّ فصل تقريبًا على المسؤوليّة التربويّة وترتُّب نجاح التربية على التزام المربي القدوة بتلك التعاليم، وبتعبيرٍ آخر: عالج الكتاب بشكلٍ مجملٍ بعض الموضوعات مثل: كيفيّة تأسيس الأسرة الإسلاميّة في ضوء النصوص الواردة في الكتاب والسنة، وكيف ينبغي أن تكون العلاقة في الأسرة الإسلاميّة بين الأب والأمّ، وبينهما والأولاد، وكيف ينبغي أن تكون الحياة الدينيّة في الأسرة.

أجل، إننا أيضًا نوافق على كلّ ما سبق، فتعليم الكبار يمكن أن يتمّ بشكلٍ نظريّ، أما الصغار فلا بدّ لهم من التطبيق العمليّ، فالنافع لهم هو توجيههم إلى كلّ ما نريد أن نعلّمه لهم من خلال معايشتهم لذلك في ثنايا حياتنا الشخصيّة، وكما هو معلومٌ لدى جميع المربّين؛ التقليد هو الأساس في حياة الطفل، فالتقليد لدى الأطفال يفوق أضعاف أضعاف ما لدى الكبار، فالأطفال يرَون الحسن والقبيح حولهم ويقلدونه، ويدمجونه بحياتهم حتى يصير مَلَكَةً عندهم.

ومن ثمّ نبّه الكتاب على ضرورة أن يكون الآباء والأمّهات الذين يربّون جيل المستقبل؛ قدوةً لأبنائهم في الأوامر الإلهيّة وجميع الجماليات التي أمر بها الدين والتي لا بدّ من تعليمها للطفل مثل: العبادة، والمعاملات الإنسانية، والفضائل الأخلاقية، فضلًا عن ضرورة انتقال الدرس من لسان المقال إلى لسان الحال، وقد كُرّرَت هذه الأمور، وبُيِّنَت بأمثلةٍ من التاريخ.

وقد شبّه المؤلّف مَن لا يستطيع أن يفعّل أقواله في حياته بمن

لا تسقط دمعةٌ من عينه ثم نراه يقول: "كلّما ذكرتك يا ربي فاضت عيناي بالدموع الغزار"، فهذا "كذبٌ على الله، ومحضُ رياءٍ".

وثمة عبارةٌ للأستاذ فتح الله كولن تُعيننا على كشف سرّ تلك النجاحات التي حققها ونالت تقدير العالم كله: "أجل، إن كانت هذه الكلمات ترجمانًا لعالم الإنسان الداخليّ ولَدُنِّه وسلوكيّاته فإن ما نشعر به ونفكّر فيه ونرغب في توصيله للآخرين سيجد له صدًى في نفوس المخاطبين، وإلا...".

وما ينبغي أن ننبّه عليه في هذا الصدد هو: "الاقتداء في الإيجابيّات يقابله الدقّة والحساسيّة في السلبيّات والمحرّمات".

المراقبة

ويشدّد الكِتاب على المراقبة على اعتبار أنّها من أهمّ المسائل التربويّة الملقاة على عاتق الأبوين، ويوصي العائلةَ بألا تترك الطفل حبلُه على غاربه، بل لا بدّ من مراقبته عن قربٍ وتوجيهه إلى الغايات المثلى التي تنشد تعليمها له، فلا تكفي معرفة الكتب التي يقرؤها أو التعرّف على أصدقائه الذين يرافقهم، بل وحتى تحديدهم له مسبقًا، وإنما ينبغي أن تخيّم روح الدين على كلّ مكانٍ يتردّد عليه الطفل مثل: المكتبة التي يشتري منها دفتره وقلمه، والخيّاط الذي يخيط له ملابسه، والحلّاق الذي يهذّب له شعره، فينبغي أن يتوفّر في كلّ هذه الأماكن عنصر التذكرة بالله، فضلًا عن إحكام السيطرة على استخدام الأطفال للتلفاز.

علاوةً على ذلك يجب على الأبوين أن يتحرّيا الدقّة في الحوارات التي تجري بينهما أمام الطفل، فيجب أن تدور هذه الحوارات حول المبادئ التي تهمّ الطفل وننشد تعليمها له، وأن تتمحور حول موضوعات متعلقة بالله ﷻ.

إننا في هذه المرحلة التي بات فيها الإنسان بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التربية، وفي هذا العهد الذي تُحاك فيه المؤامرات للمشرّدين ونسمع بين الفينَة والأخرى دعواتٍ تنادي بعدم التدخّل في شؤون الأطفال والشباب وإطلاق حرّيّتهم حتى غدا الآباء والأمّهات في حيرةٍ من أمرهم؛ تُسعفنا توجيهاتُ هذا الرجل الفاضل الموثوق بإخلاصه وعلمه، وهي توجيهاتٌ تُعدّ بمثابة ماء الحياة بالنسبة لنا وبوصلة توضِّح الطريق لمن ضلّ في الصحراء.

وإنني على ثقةٍ بأن كثيرًا من المحبّين المخلِصين الذين يحدوهم الأمل إلى تنشئة جيلٍ مثاليّ؛ سيسعون سعيًا حثيثًا لتصحيح مسار حياتهم أوّلًا، لنصل بعد ذلك إلى الهدف النبيل والثمرة المرجوّة.

الوصايا التي تمنح الثقة الكاملة

وثمّة خاصّيّةٌ أخرى جعلت هذا الكتاب متميّزًا عن الكتب التربويّة العاديّة، وهي استخدام المؤلِّف لأسلوب الجزم والقطع فيما يذكره من أفكار وما يوصي به من مبادئ وما يوضّحه من أهدافٍ وما ينصّ عليه من تطبيقات.

أجل، العبارات جازمةٌ لاستنادها إلى الآيات والأحاديث، وهذه المسألة دعت الأستاذ الفاضل كولن إلى توضيحها في الكتاب حيث قال: "إننا إن كنّا قد حتّمنا القول في الحديث عن القيم والمبادئ واستخدمنا الجمل القاطعة فهذا يرجع إلى اعتقادنا بأننا ننظر إلى المسألة من منظور الكتاب والسنة، وهذا على الأقل يقوّي ظنّنا في هذا الاتّجاه".

وهذه مسألةٌ مهمّةٌ جدًّا بالنسبة إلينا، فمن المهمّ بالنسبة للمؤمن أن يكون مصدر المبادئ والتوجيهات التي سيثق بها ويطمئنّ إليها مقدَّسًا،

بمعنى أن تكون مستنبطةً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وإنّنا إذا أخذنا في الاعتبار كثرةَ عدد المحبّين للأستاذ فتح الله كولن الواثقين فيه وأن أغلبهم شبابٌ يتمتّع بوعيٍ كبيرٍ ومستوًى ثقافيٍّ عالٍ إذا ما عزم على شيءٍ أتمّه؛ جاز لنا أن نقول: إن عهدًا جديدًا أكثر تركيزًا وتنظيمًا سيبدأ في عمليّة التنشئة لجيلٍ مثاليّ، وإن نشر هذا الكتاب مع بداية الألفيّة الثالثة لهو توافقٌ ذو مغزًى عميق وفألُ خيرٍ إن شاء الله، وإنني شخصيًّا لأشعر بأن صياغة هذه الأفكار الوعظيّة على شكل كتابٍ في بداية الألفيّة الجديدة بعد أن كانت تُلقى على زمرةٍ محدودةٍ من المستمعين في فترة ما قبل الثمانينات من القرن المنصرم ليحمل لنا رسالةً فحواها:

> "يا مجانين ليلى؛ أحبّوا غايتكم المثلى كحبِّ المجنون لليلى على الأقلّ، غير أن سبيل الوصال بليلى هذه سبيلٌ مختلفٌ تمامًا، فدعوا الجنون وأفيقوا من غفلتكم وأجمِعوا أمركم، وارجعوا إلى المنطق السليم وإرشاد العلم، مع الاستفادة والاعتبار بالحوادث التي وقعت في الماضي القريب، لقد وثقنا كثيرًا في الماضي ببعض المؤسّسات والسياسات واستسلمنا للدّعة والخمول، وانخدعنا بالمظهر وأغفلنا المخْبَر، فالآن علينا أن ندرك مسؤوليّتنا وأن نحقّق مزيدًا من الاهتمام بتربية أطفالنا دينيًّا وعلميًّا، وأن نجعل من كل بيتٍ مدرسةً".

وإنني لعلى ثقةٍ بأن جموعًا غفيرةً ستستوعب هذه الرسالة، ويبدأ المحبّون المخلصون مرحلةً جديدةً في فعاليّاتٍ ونشاطاتٍ غايتها القلب والروح.

هل سينجحون؟

لا شكّ في ذلك بإذن الله وعنايته.

إن هؤلاء الأبطال قد بلّغوا صوتَ أمتهم، وحملوا رايتَها التي جعلوها علَمًا من أعلام إعلاء كلمة الله، ومن ثمّ فإنهم سيبلغون أهدافهم بإذن الله، وما أُنجِز دليلٌ على ما سيتمّ إنجازه.

أجل، إن قدر الحبّ الذي يكنّه عشّاق هذا العصر تجاه فكرة إعلاء كلمة الله ليفوق أضعافًا مضاعفَةً ذلك العشق الذي كان يحمله مجنون ليلى لمحبوبته، إنهم أبطالٌ اكتشفوا شيئًا يُنتج الطاقة ويضبطها ويحدّ منها في الوقت ذاته ألا وهو قوّة الإرادة.

ولعلّ الذين حاولوا قديمًا أن يخيّبوا سعي وجهود الأستاذ فتح الله كولن بما قاموا به من حملات كذبٍ وتشهيرٍ سيصرّون على عدم فهمهم للإسلام، وسيبدؤون سلسلةً جديدةً من هذه الحملات، وإني لأرجو أن يُقرأ هذا الكتاب بإنصافٍ ودقّةٍ بالغةٍ، ولا جرم أننا إن فعلنا ذلك سندرك أن هذا الكتاب من المقوّمات الرئيسة التي تبني مستقبلنا.

إسطنبول، ٧ يناير/كانون الثاني (٢٠٠٠م)

أ. د. إبراهيم جَانَانْ(١)

---

(١) أ. د. **إبراهيم جَانَانْ** (*Canan*) (١٩٤٠ - ٢٠٠٩م)، كاتب وأستاذ أكاديمي بكليات الإلهيات قسم الحديث في تركيا، ألّف العديد من المؤلفات القيمة خلال حياته العلمية، وترجم من اللغة العربية إلى التركية كتاب "**تيسير الوصول إلى جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ**" لعبد الرحمن بن علي بن الديبع الشيباني (ت: ٩٤٤هـ)، وهو كتابٌ اختصر فيه المؤلف كتاب "**جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ**" لابن الأثير (ت: ٦٠٦هـ)، وجمع فيه كتب الحديث الستة (وهي موطأ مالك، وصحيحا البخاري ومسلم، وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي)، عنون المترجم كتابه الذي جاء في ثمانية عشر مجلدًا بعنوان: "**موسوعة الحديث الشريف: الكتب الستة**"، ولقد قدم لهذا الكتاب شرحًا إلى جانب الترجمة، وهو كتابٌ يحتلّ مكان الصدارة في الكثير من مكتبات الأسر التركية، حصل الأستاذ الدكتور "إبراهيم جانان" على جائزة "الوقف الثقافي الوطني التركي" عام (١٩٧٩م) عن كتابه: "**تربية الطفل في الأسرة والمدرسة وفقًا لنهج الرسول ﷺ**"، تخرّج على يديه الكثير من الطلاب في كليات الإلهيات في مرحلة الليسانس والماجستير والدكتوراه، تقاعد من العمل في كلية الإلهيات بجامعة "مَرْمَرَة" في إسطنبول عام (٢٠٠٧م)، ولكن هذا لم يُقعده عن مواصلة جهوده العلمية؛ حيث استمرّ في تأليف الكُتب والمقالات إلى جانب المشاركة في الندوات والمؤتمرات، توفي ﷺ عن عُمر يناهز التاسعة والستين عامًا جرّاء حادثٍ مروريّ مُروّعٍ تعرض له في الرابع عشر من أكتوبر/تشرين الأول عام (٢٠٠٩م)، ودفن في مقابر "أيوب سلطان" بإسطنبول، رحمه الله رحمة واسعة. (مترجم)

مدخل

١- مفهومنا الأخلاقي

إنّ ممّا تدعونا إليه الضرورةُ بدايةً أن نتّفِقَ مع قرّائنا الأعزّاء على بعض الأمور؛ لأنني على قناعةٍ بأن الاستفادة تتعذّر من هذا الكتاب دون الاتّفاق على بعض المسائل الرئيسة.

أجل، هل من الممكن -عند تناول الموضوعات المتعلّقة بالتربية في الأسرة- الاتّفاقُ على المفهوم الأخلاقيّ مع مَن لا يتضجّرون من كثرة المساوئ في وطننا ومدينتنا وقريتنا وبيتنا؟ وماذا عسانا أن نقول إن رضينا بحالنا رغم كلّ شيءٍ، ولم تؤثّر فينا المساوئ المحيطة بنا؟ وهل من الممكن أن نتصوّر فائدةً تُرجى من مدارسة المسائل الأخلاقيّة إن لم ترتجِف قلوبنا وننفر من الانحطاط الأخلاقيّ الذي نرى فيه أولادنا وأحفادنا وأبناء إخواننا ومَن نحن لهم بمثابة الخال والعمّ والجار ذي الجنب.

لم يُكتب البقاء لأيّ مجتمعٍ ظهر فيه الفساد على مدى التاريخ، ولا أعلم إن كان في هذا استثناءٌ أم لا، ولكن لا جرم أن الأمم التي حافظت على وجودها مدّةً طويلةً دون أن يجافيها التاريخ كانت تحترم القيم الأخلاقيّة.

٢- أسباب انهيار الأمم

وإذا ألقينا نظرةً على الحضارات السابقة نجد أنّ معظم الانهيارات ترجع إلى قارضٍ أخلاقي كالقارض الذي تسلّط على سدّ "إِرَم"، وأحيانًا لا نشعرُ بالمساوئ الأخلاقية وهي تنخر بهدوءٍ في قيم المجتمع، وإذا ما شعرنا بها يكون الزمن قد ولّى، مَثلُها مثلُ السرطان، فكما لا نستطيع غالبًا أن نفطن إلى وجود السرطان إلا بعد غزوِه المناطِقَ شديدة الحساسيّة في البنية وبعد أن تبدأ الرحلة إلى الآخرة، فكذلك هذه المساوئ.

نعم، كيفما يفعل السرطان في بنية الإنسان تفعل المساوئُ الأخلاقية في حياة الأمم، فإنْ تغافل رؤساءُ الدول ثم أرباب الأُسَر والمربّون والأمّة جميعًا عن مثل هذا الانحطاط الأخلاقيّ لانهارت الأمّة كلها انهيارًا مدوّيًا، وربما لا يتنبّه البعضُ من الغفلة حتى لو انهارت أركان الأمّة كافّة، ولعل البعض الآخر يرى الأمر طبيعيًّا كالأحياء التي تعيش تحت الأنقاض بحجّة أن هذه هي الحياة.

أجل، إذا ما تطرّقنا إلى الأسباب الرئيسة وراء انهيار الأمم لرأينا بشكلٍ عام:

طَيْش الشباب واستهتارهم، والرغبة في إحياء المشاعر البهيميّة لدى أصحاب نزعات التحرُّر، والانغماس في الشهوات، وابتغاء المجتمع للدنيا ونسيانه للآخرة، والبعد عن الله والإعراض عن القرآن، وانسلاخ القلوب من مشاعر الخوف والمهابة، وانجرار كلّ شيءٍ إلى المادّة.

ومعظمُ هذه العوامل هي السببُ في انهيار العديد من الدول منها الدولة العثمانية، وفي حين أننا كنّا نريد التخلّص من الأزمات التي أحدثتها الفراغات المعنويّة إذا بنا نستعين بأمورٍ دنيويّةٍ تزيد من حدّتها، وندخل في دائرةٍ فاسدةٍ، بيد أن المشكلة تنبع من فقدان الأمم لمعنويّاتها وابتعادها

عن القرآن ومبادئ الإسلام ونسيانها لربّها عزّ وجلّ، فأصبح مصدرُ الداء دواءً لمن يبحثون عن دواءٍ لدائهم العميق.

هذا وإنّ نقطةَ الانحراف معروفةٌ واضحة؛ إذ كان كلّ شيءٍ ينشأ عن الانغماس في المادّة وإهمال المعنى، بيد أن الحياة المادّيّة تُشكّل جانبًا من حياة الإنسان والحياةُ المعنويّة تُشكّل الجانب الآخر منها، بل جوهرَها، ومثل هذا القصور المعنويّ لا يمكن سدّه بالمادة.

في الواقع أنه يمكن لكلّ شيءٍ أن يحقّق التوازن إذا ما تمّ الأخذ بالمادة والمعنى على السواء وفق قدر ومقدار كلٍّ منهما؛ يعني يتحقّق التوازن والنجاح إن وفّينا حقّ الله بما يليق بعظمته سبحانه، وأدّينا حقَّ القرآن حقّ قدره، ووجّهنا اهتمامَنا وتقديرَنا للدنيا على حسب قيمتها وللآخرة كما يليق بها.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٢٨/٧٧)؛ أجل، يجب أن نستغلّ ما أنعم الله علينا به من صحّةٍ وعافيةٍ وثروةٍ وعقلٍ وأن نستعدّ بذلك للآخرة، ولا ننسى في الوقت ذاته نصيبَنا من الدنيا، هذا هو مقياس القرآن الكريم، فلو تحقّق التوازن بين الدنيا والعقبى حسب هذا المبدإ القرآنيّ ما أصابنا هذا القدر من البؤس والتعاسة.

ومن ثمّ أقول إن الضرورةَ تقتضي عند تناول مسألة التربية في الأسرة أن نبحث فيما يمكن الاتّفاق فيه على المبادئ الأخلاقيّة، خاصةً في هذا العصر الذي تَمنع فيه الملذّاتُ الدنيويّة الفردَ من ذكر الله.

تتعرّض كلّ أمّةٍ لفتراتٍ من الازدهار وأخرى من الانحطاط، وإنّما ترتقي بالمبادئ التي ترفع من شأنها، وتتدهور بالعوامل التي تحطّ من قدرها؛ لأن قوانين الكون تجري في أُطُرٍ جبريّةٍ مشروطةٍ، وبما أن الطبيعة

جزءٌ من الكون فقد خلقها الله في الظاهر تابعةً لهذه القوانين الجبريّة، ولذا لا بدّ من مراعاة قوانين الطبيعة والآيات التكوينية، فإن اعتمدتم على غفران هذه القوانين لكم أو على تسامحها وتجاوزها عن أخطائكم، ثمّ قصّرتم في بعض وظائفكم لنبَذْتُكم وقضتْ عليكم. أجل، فلا غفران لدى الآيات التكوينية التي هي قوانين الشريعة الفطريّة، إنها لا تُسامح أو تغفر ألبتّة، فإذا ما أحسنّا اختيار المنهج حسب هذه القوانين رفعَنا الله إلى مرتبةِ أعلى علّيين، وإن قصّرنا في مراعاة الأسباب تردَّينا إلى أسفل سافلين إلا بفضلٍ من الله ومنّةٍ.

وإن كنّا سنرجع مرّةً أخرى إلى المشكلة الرئيسيّة فعلينا أن نجيب على الأسئلة التالية: هل أنتم على قناعةٍ بأن هناك عوامل خطيرة وأسبابًا موضوعيّةً وراء فساد الأخلاق؟ وهل تصدّقون حقيقةً بوجود أزمةٍ أخلاقيّةٍ؟ وهل تنظرون إلى حياتكم الفوضويّة الحالية على أنها فسادٌ أخلاقي أم أنها مظهرٌ لوضعٍ عادي؟

٣- تقليد الأمم الأخرى

يقول رسول الله ﷺ **"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ"**(٢).

إن السبب في انهيار المجتمعات التي ساد فيها الانحطاط الأخلاقيّ يرجع إلى الانخداع بالدنيا، وعدمِ القدرة على تحقيق التوازن بين الجسد والروح، والعجزِ عن كبح جماح النفس؛ ومع الأسف بدأت هذه المشكلة منذ فجر التاريخ، وانتقلت من جيلٍ إلى آخر عبر العصور، ثم ورِثَ الغربيّون هذه المساوئ، فزيّنوها بشيءٍ من فنتازيا الحضارة ونقلوها

(٢) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٥٠؛ صحيح مسلم، العلم، ٦.

إلى مقلّديهم، وعلى ذلك يُعدّ هذا الحديث الشريف معجزًا للبيان. أجل، لقد أُوحيَ إلى الرسول ﷺ هذا المعنى وحيًا غير متلوٍّ، ثم صاغه في قالبٍ من الكلمات.

وهنا لا يمكنني أن أنتقل إلى مسألةٍ أخرى دون التطرّق إلى النقطة التالية: عندما ننظر إلى بعض الدول والشعوب نرى أنها مرفّهةً سعيدةً بإمكانياتها المادّيّة، ونحسب أنها قد تجاوزت كلَّ مشاكلها، بيد أن الإنسان الغربي يعيش دائمًا في ضيقٍ واضطرابٍ، ينشد السعادة لكنه لا يجدها، ونسبة الانتحار في الغرب مرتفعة مقارنةً بالأماكن الأخرى، ولا يمكن أن نتصوّر أن هناك أمّةً تعيشُ سعيدةً بينما تشيع وترتفعُ نسبة الانتحار بين أفرادها رجالًا كانوا أم نساءً.

وقد كشف مؤتمرٌ عُقد بـ"الرباطِ" عاصمةِ المغربِ تحت عنوان "تنظيم الأسرة" أن نسبة الطلاق في أمريكا تبلغ ٤٠٪، وربما زاد هذا الرقم في الوقت الحالي، هذه هي أمريكا التي يراها الجميع بأنها أكثر الدول توازنًا بين الأمم المتدنّية أخلاقيًا، قد لا تكون تأثّرت بأراجيف الغرب لحساسيّتها في بعض المسائل، ورغم هذا توجد المشكلة نفسها هناك أيضًا.

٤- المخلوق المكرّم

لا بدّ أن يوجَّه كلُّ شيء ويُسخَّر لسعادة الإنسان، فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، سخّر الله له الكون؛ فكان لا بدّ أن تقوم الحضارات من أجله وبغيةَ سعادته، فهو أكرم مخلوق؛ يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ

﴿عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ١٧/٧٠)، ويؤكد "الشيخ غالب"[٣] هذه الحقيقة القرآنيّة فيقول:

أحسِن النظر إلى نفسك فأنت زبدةُ العالم
وقرّةُ عين الأكوان فأنت ابن آدم

أجل، الإنسانُ مخلوقٌ مكرّم في نظر الله تعالى، وكلّ الحضارات وكلّ الأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة على الأرض ليست إلا فعاليات للاعتراف بقدره وقيمته؛ فلا قيمةَ ألبتّة للأنظمة إن كانت لا تنشد سعادة الإنسان؛ ولا تعِد البشريّة بأيّ شيءٍ.

٥- الرهبانيّة وسيادة الكنيسة في الغرب

ثمّة بونٌ شاسعٌ بين العالم الإسلاميّ والعالم الغربيّ في هذا الموضوع، فلقد انهارت سلطنة الرهبنة والمسيحية في الغرب بتفوّق العلم، أما الوضع في العالم الإسلاميّ فكان على النقيض من ذلك؛ حيث ازداد التوجّه إلى الدين بالتزامن مع تقدّم العلم.

قبل حركات النهضة والإصلاح في أوروبا فُرضت الضرائب الباهظة على الشعوب الذين يقعون تحت سيادة الكنيسة، حتى غدا الجميع مضطربًا خائفًا قلقًا على مستقبله بسبب قوانين الكنيسة المتغيّرة على الدوام.

وكان الزعماء الروحانيّون يُضمرون عداوةً شديدةً للعلم، ولا يرحّبون أبدًا بالاختراعات العلميّة التي كان مصير معظمها الرفض دون النظر حتى إلى ماهيّتها؛ وليس بقليلٍ مَن حكمت عليهم محاكم التفتيش بالأشغال الشاقّة المؤبّدة بسبب هذه الاختراعات والابتكارات المختلفة!

---

(٣) غالب محمد أسعد دَدَه: (١٧٥٧-١٧٩٨م) أحد كبار الشعراء الأتراك الذين عاشوا في الحقبة الأخيرة من عهد الشعرِ الكلاسيكي، نظمَ أشعارًا صوفيّةً مستخدمًا لقب "أسد" أو "غالب"، وله دواوين ومؤلّفاتٌ عديدةٌ، منها "الديوان" و"الحُسن والعشق" و"شرح جزيرة المثنوي" و"الصحبة الشافية". (مترجم)

ولم يكن للناس القدرة على الاعتراض على هذا المفهوم القمعيّ، بل لم يكن بوسع معظمهم -باستثناء قلّةٍ من الأرستقراطيّين- الحديثُ عن قمع الفقراء وحقوق المرأة التي كانوا يعتبرونها في محالّ العمل نصفَ إنسانٍ فلا تأخذ من الأجر إلا نصفه، وبناءً على هذا حصلَ لدى معظم شرائح المجتمع امتعاضٌ ونفورٌ من الدين.

وبسبب هذا النفور العام تهاوى بشدّةٍ كلّ ما يتعلّق بالكنيسة بمجرّد قيام الحركات الإصلاحيّة في شتّى الأماكن؛ وتبع ذلك انهيارٌ تامٌّ للقيم الأخلاقيّة.

٦- العلاقة بين الدين والدولة في الإسلام

لم يخبْ أملُ أيّ عالِمٍ في العالم الإسلاميّ؛ فلم يكن الدين يمارس أيَّ قمعٍ على الدولة أو الشعب، فالقوّة دائمًا مع الحقّ، والأمراء في خدمة الخلقِ، حتى إن الحكّام المسلمين كانوا يُذعنون لأيّ كلمةٍ تُقال في سبيل الحقّ، بل كانوا يُبدون تلهّفهم إلى تقبّل الحقّ.

وإنّ ما جرى بين السلطان "محمد الفاتح" و"خضر شلبي" رحمهما الله ليُعتَبَرُ واحِدًا من النماذجِ الكثيرة التي تُبرهن على صحّة هذا الأمر[٤].

(٤) يُروى أنّ معماريًّا غير مسلم شارك في بناء "جامع الفاتح" الذي شُيّدَ في عهد السلطان "محمد الفاتح"، فقام هذا المعماري ببعض أعمال البناء وفقًا لرغبته الشخصيّة مخالفًا في ذلك تناسبَ الجسم العمرانيّ متجاهلًا أوامر المهندسين والقائمين على شؤون البناء، فلمّا علم السلطان محمد الفاتح بذلك أمر بقطع يده جزاءً له ونكالًا، وإذ بالمعماريّ يرفعُ دعوى قضائية ضد السلطان يعترض فيها على هذا الحكم السلطانيّ، فكان القاضي في هذه القضيّة "خضر شلبي"، فاستدعى كِلا المتخاصمين ليمثلا أمام عدالة المحكمة، وفعلًا حضر كِلاهما أمام "خضر شلبي" فاستمع لأقوالهما دون محاباةٍ للسلطان ولا مُطلٍ للمعماري، ثمّ أصدرَ حكمه بقطع يدِ السلطان الفاتح، فأخذتِ الحيرةُ والدهشةُ قلبَ ذلك المعماري، وتنبّه إلى مبدإ العدل والحقّ في الإسلام فكان ذلك سببًا في اعتناقه الإسلام، وقام بالعفو عن السلطان، وبعد انتهاء المحاكمة حدث أمرٌ جللٌ أذهل جميع الحاضرين؛ حيث أخرج السلطان الفاتح كرةً حديديّةً مصمتة بها نتوءات وأظهرها للقاضي "خضر شلبي"، وقال له: "لو لم تحكم بما أنزل الله لكنت ساحقًا رأسك بهذه"! فأخرج القاضي خنجرًا كان يُخفيه، وأظهره للسلطان، وقال له: "وأنت يا مولاي لو لم ترضَ بما قضيتُ لقطّعتُ جسدَك إربًا إربًا بهذا الخنجر". (مترجم)

وقد كان الخلفاء الراشدون من أمثال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وعلي بن أبي طالب كرّم الله وجهه يتحاكمون مع يهوديٍّ أمام القاضي، وبما أن القوّة كانت مع الحقّ دائمًا فلا مجال إذًا للجبروت أبدًا كما وقع في الغرب، ومن ثمّ لم يحدث لدى أيّ شخصٍ امتعاضٌ أو نفورٌ من الدين، فالحياة التي ينشدها الآخرون في الأوطوبيا قد صارت حالًا واقعًا في هذا العالم الإسلاميّ.

٧- المبادئ الأخلاقية

ما الذي نستحسنه وما الذي نستقبحه؟ كيف نُفكّر في تربيتنا لأطفالنا؟ وهل هناك خطّة أو هدف وضعناه للقيام بهذا الأمر؟

كيف نُفكّر في تربية أبنائنا؟ نقول: "إنني أريد أن يكون ولدي هكذا؟"؛ فماذا فعلنا من أجل تحقيق ذلك؟ كيف نرى تسكّع الأبناء هنا وهنالك إلى ساعة متأخّرةٍ من الليل؟ هل سنفتح أبوابنا وصدورنا لهم إن جاؤوا في أيّ ساعةٍ من ليلٍ؟

ما الأفعال التي نتقبّلها من أطفالنا وإلى أيّ حدٍّ؟ وأيُّ الأفعال نَصفها بالأخلاقيّة أو غير الأخلاقيّة؟ وما الأفعال التي نستحسنها فيهم ونستقبحها منهم؟ وإلى أي حدٍّ سنسمح لهم فيما يفعلون؟ وعلى أيّ قاعدةٍ نعتمد في مسألة التدخّل في أزيائهم؟

هل فكّرنا حتى الآن فيما نفعله إن لم نرتضِ شأنًا من شؤونهم؟ هل عثرنا على حلٍّ لهذا؟ كم من الأبواب طرقنا، وإلى كم من المتخصّصين لجأنا؟ وكم من الدمع سكبنا في سبيل البحث عن حلٍّ؟

إن هذا الموضوع يعنينا كما يعني أقاربنا وجيراننا بل وكلّ أمّتنا، لكن هل سعينا كي نصِلَ إلى حلٍّ في الحقيقة لكلّ هذه الأمور؟

فـإن لـم تكن لدينـا خطّةٌ أو هدفٌ في هـذا الموضوع فهـذا يعني أننا أصبحنا -كما ذكر النبيّ ﷺ في حديثه السالف الذكر- نتبع سننَ مَن قبلنا شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ، فانسقنا إلى جهنّم وبئس المصير.

والواقـع أن كل هـذا يرجـع إلى ابتعادنـا عن الله تعالى ورسـوله ﷺ والقرآن الكريم وخضوعِنا لأهوائنا ورغباتنا.

إن كثيـرًا من الآبـاء يعانون اليوم من بعض أولادهم، فيا تُرى ما الذي فكّرنا فيه لمعالجة أخطائهم؟ لا تُقَلِّلوا من أهمّيّة التفكير في هذا الأمر.

أجل، لا بدّ لنا أن نفكّر هكذا، ونرجع إلى أنفسنا ونطرح هذا السؤال: ماذا يمكن أن نفعل حقًّا في مثل هذا الأمر؟ فيا ترى هل نحن متسامحون أم جُفاةٌ أم غيرُ مبالين؟ هل نكتفي بمشاهدة ما يجري في بيوتنا في صمتٍ وتبلّدٍ للشعور؟ أم هل نبحث عن حلٍّ لكل صغيرةٍ وكبيرةٍ في البيت؟

يمكننا أن نُطنِبَ في هذا المضمارِ فنطرحَ على أنفسنا تساؤلاتٍ أخرى، نحـو: هل تتبّعنـا طفلنا كالحارس الأمين؟ وهل بذلنـا جهدًا للتعرّف على أصدقائه؟ وهل استطعنا أن نمهّد له الجوّ المناسب دائمًا؟ وما نوعيّة الناس الذين عرّفناه بهم حتى الآن؟ فإن لم نفعل هذا فمـع مَن يلهو ويلعب؟ هل يكفي أن نسـجّله بمدرسـةٍ أو نعهد به لمعلّمٍ أو نلحقه بدورةٍ لحفظ كتاب الله تعالى؟ وهل يكفي أن ندلّه على المسجدِ ونعهد به إلى الإمام؟

ولا تقـل أهمّيّة البحث عن جواب هذه الأسـئلة المتداخلة عن أهمّيّة قيام حياتنا الذاتيّة على النظام والعمق والإخلاص والمثابرة والجاذبيّة.

٨- الحياة وفقًا للمبادئ والتخطيط

من المهمّ أن نجعل لحياتنا مبادئَ نسير عليها منذ البداية. أجل، علينا أن نقول في أنفسـنا: "يجب أن أخطّط لهذه السـنة على هذا النحو، وللسنة

القادمة على هذا الشكل، وللسنة التي بعدها على هذا المنوال"، فإن فعلنا هذا ألفينا ما هو معلومٌ لنا من الخطط والمشاريع، واتّخذنا القرار الصائب بسهولةٍ ويسرٍ، وما وقعنا في حيرةٍ من أمرنا، ولكن إن لم نضع لأنفسنا مبادئ وخططًا بشأن المستقبل فعلينا أن نتأهّب للانجراف -مذهولين- من الغد إلى المجهول، تخيلوا أنّ هناك أمورًا متراكمةً مجهولةً داهمت حياتكم فجأة، عند ذلك هل ستأخذون في الصراخ والعويل؟ أم ماذا ستفعلون! إذًا لا بدّ أن تُعِدّوا العُدّة حتمًا قبل وقوع كلّ هذا.

فلننظر الآن إلى حال العالم الإسلاميّ الذي يبلغ مليارًا ونصف مليار مسلم، وعندها سنرى أن الأبناء والأحفاد يحترقون في نفس الفرن الذي شُوِي فيه الآباء، وفي نفس النار التي اكتووا هم بها، وبينما يحترق أحدهم ترى الآخر ينظر إليه في غاية اللامبالاة، وفي حين أن الأمّة أو الأمم تغوص في الوحل نفسه نجد الآخرين ممّن يأتون بعدهم يسيرون على منوالهم تمامًا بلا وعيٍ فيغوصون في نفس المستنقع الوخِم، ويتجرّعون نفس البؤس المرير، ولا يَبقَون في أذهان البشر إلا كذكرياتٍ بغيضةٍ.

يقول النبي ﷺ في معرض الإخبار والإنذار كما سردنا آنفًا: "**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**"(٥).

يمكن أن نستنبط من هذا الحديث تحذيرًا فحواه: "خذوا حذركم، وانتبهوا، وسيروا كما لو أنكم تسيرون في حقل ألغامٍ، واحتاطوا فلربّما ينفجر فيكم لغمٌ في أيّ لحظةٍ".

(٥) صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء، ٥٠؛ صحيح مسلم، العلم، ٦.

وهنا نتوقّف عند هذه الأبيات الشعريّةِ المثيرة للشجون التي نظمها شاعر الإسلام المرحوم "محمد عاكف"(٦):

انسلخ الحياء وسقط، حتى دخلت الوقاحة كلَّ خاص وعام
كم من وجوهٍ قبيحةٍ كان يسترها ذلك الرقيق من اللثام

انعدم الوفاء، وضاعت حرمة العهد، وأصبح لفظ الأمانة بلا مدلول
الكذب رائج، والخيانة في كلّ مكانٍ، والحقّ مجهولٌ

والقلوب قاسيةٌ، والآمال سافلة، والمشاعر دنيّة
وتتجّه العيون إلى عباد الله بنظراتِ استحقارٍ قويّة

الأجساد تقشعرّ يا ربّ ما أفظع هذا الانقلاب!
لم يعد دينٌ ولا إيمان، فالدين خرابٌ والإيمان تراب

تلاشت المفاخر، وخرست الضمائر
لم يعد هناك استقلال والأخلاق في اضمحلالٍ ظاهر

أجل، لم تنتشر الفوضى واضمحلال الأخلاق في مكانٍ واحدٍ، بل عمّت كلّ الأماكن، حتى إنّ مَن ينزعجون من هذا باتوا -بتأثير إشعاعاتها- متبلّدي المشاعر، وكأنهم لا درايةَ لهم بما يجري.

٩- الأخلاق العالية

يقول سيدنا رسول الله ﷺ "**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**"(٧).

(٦) محمد عاكف أَرْصوي (١٨٧٣- ١٩٣٦م) هو من أساطين الشِّعرِ التركيّ، وهو كاتب نشيد الاستقلال التركي، وهو ذو خُلُقٍ رفيعٍ وسَمتٍ حسَنٍ يتخذه كثيرٌ من الأتراكِ قدوةً لهم، إنه رجلُ فكرٍ ومعرفة، وإن كتاباته وترجماته لتحفل بالفوائد الجمة والخدمات الكثيرة. (مترجم)

(٧) مسند البزار، ١٥/٣٦٤؛ البيهقي: السنن الكبرى، ١٠/٣٢٣.

إنّ نِعَـمَ الله علينـا لا تُعدّ ولا تُحصى، ولقد زُوِّدنا بقابليات ومؤهّلاتٍ تُمكّننـا مـن اتّخـاذ موقعنا بين سـاكني الملإِ الأعلـى، وإن تقدير الألطاف الإلهيّـة التـي وَهبها لنا ربُّنا ﷻ لهو مـن مقتضى تعظيم الله تعالى، واحترامِ ذاتنا المزوّدة بالعديد من الطاقات الكامنة.

إن الكتب الإلهيّة هي صدى هذه الرسالة ونَفَسُها، والأنبياء هم أصدق ممثّليـن لهذه الحقيقـة، أما الحلقة الأخيرة في هذه السلسـلة الذهبيّة فهي النبي محمد ﷺ، وهو أسطـعُ برهانٍ لهذه الحقيقة، وأعظمُ سلطانٍ للأخلاق العالية؛ يقول الله تعالى في سورة القلم مشيرًا إلى عمق أخلاقه ﷺ وسعتها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سُورَةُ القَلَم : ٤/٦٨).

١٠- زينة الحياة الدنيا

يقـول الله تعالى في سـورة الكهف: ﴿اَلْمَـالُ وَالْبَنُونَ زِينَـةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَـاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّـكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا﴾ (سُـورَةُ الْكَهْفِ : ٤٦/١٨)، تشدّد الآية الكريمة عامّةً على أن المال والبنين زينةُ الحياة الدنيا وزهاؤها، وأن لها موقعًا لا يسـتهان به. أجل، إنها تابعة للوجه القبيح الفاني للدنيا، وهذا الوجه ينظر إلى الدنيا نفسها، وهو وجهٌ ذابلٌ متراخٍ فاسدٌ يبعث على الضيق والإزعاج[٨].

وهذا يعني أن المال في حدّ ذاته ليس بشـيء يُفتخر به، والولد كذلك ليـس ممـا يُفتخـر به في نفسـه، غير أنهمـا إن وُجّها إلـى الله وإلى الآخرة وصـلا إلـى قيمةٍ تفوق كلَّ القيم، ودخلا في صنـف الباقيات الصالحات، فإن حدث هذا صارا في الآخرة أشـجارًا باسـقة تعلن عن نفسها بثمارها، رغم أنهما كانا بذرةً في الدنيا.

(٨) وللدنيا وجهان آخران ينظر أحدهما إلى أسماء الله الحسنى باعتبار الدنيا مَظهَرًا للأسماء الحسنى، والوجه الآخر ينظر إلى الآخرة من حيث إن "الدنيا مزرعةُ الآخرة"، وكلا هذين الوجهين حسن.

إن هـذه الأمـور التي حاولـتُ أن أنوّه إليها ما هـي إلا مبادئ وضعها لنـا القرآن الكريم؛ تحدّد لنا المنهج الأقوم، وتهب الحياة لأرواحنا، وهي كامنةٌ في صيدليّة القرآن الكبرى، وفي النظام الذي نسجه الرسول ﷺ بيديه الميمونتين المباركتين وهو السـنة النبويّة، وإن اسـتمداد الحياة من القرآن والسنة والإنصاتَ لصداهما العلويّ لهو محض اختصاصٍ من الرحيم ﷻ.

١١- الرحمة

يشـير القرآن الكريم إلى ضرورة أن يستعين الناس برحيميّة الله عندما تعترضهـم أيّ مشـكلةٍ كما ورد في قصة أيّـوب عليه السلام: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٨٣). أجل، فالاستعانة برحمانيـة الله ورحيميّتـه هـي بمثابـة طلـب العون منـه لأنفسـنا وعائلاتنا وأولادنـا -الذيـن أطلقناهم فـي الشـوارع- وأقاربنا، وإعـلانٌ كذلك عن عجزنا وضعفنا، واعترافٌ وتسليمٌ بأنه ﷻ بيده مقاليد كلّ شيء، فضلًا عن ذلك فالمرحمة في الوقت ذاته وسيلةٌ لجلب الرحمة، فالراحمون يرحمهم الله، فإن كنّا على وعيٍ تامّ وحساسـيّةٍ بالغة إزاء التفسّـخ والتفلُّتِ وفسـاد الأخلاق صان الله وحمى كلَّ ما يمكن أن يتعرّض فينا للفساد.

يقول سـيدنا رسول الله ﷺ: "**اَلرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"(٩).

إن المـوت الحقيقـيّ والمصيبة الكبرى ليسـتا الموت الذي نعرفه ولا المصائـب التـي يمكن أن تقـع كحـوادث الطرق وغيرها، إنمـا هما غفلةُ الإنسان عن نفسه، وتبلّد شعوره، وموته في عالم القلب والمعنى.

(٩) سنن أبي داود، الأدب، ٥٨؛ سنن الترمذي، البر والصلة، ١٦.

نعـم، إن أعظم البلاء ألّا يسـتطيـع المرء أن يفطـن إلى الحريق داخل بيته، وأن يظلّ بلا حسٍّ أو شعورٍ إزاء ما أصاب ولده من فسادٍ وعفنٍ.

فإذا كان الوالدان لا دراية لهما بالحريق المعنويّ في بيتهما فما أعظمها من تعاسـةٍ، وما أشـدّها من غفلةٍ، وما أكبرها من ضلالةٍ، فمهما بكى مثل هؤلاء على حالهم فلا يكفي، لأنّ البكاءَ أيضًا يحتاج إلى قلب يشعر.

١٢- الإنسانية في أعلى مراتبها

الانحطـاط الأخلاقـيّ هـو أفظـع المصائـب، من أجل ذلـك نرى أن المبـادئ الأخلاقيّـة للقـرآن الكريم هـي أنجـعُ علاجٍ لإنسـان اليوم الذي تتغلّب عليهم الأزمات النفسية.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَـانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْـفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ (سُورَةُ التِّينِ : ٩٥/٤-٦).

ويمكن أن نسـتنبط من هذه الآيات المعنى التالي: إنّا جعلنا الإنسـانَ فـي صـراعٍ مـع نفسـه على الـدوام، فإن تـردّى أحيانًا أو وقـع سـرعان ما ينهض ويحلّق بأجنحةِ الإيمان والعمل الصالح، ويرتقي إلى الإنسانيّة في أعلى مراتبها.

إنّ هذه الآيات تسـعفنا، وتشـدّ من أزرنا، وترقى بنا إلى أعلى مراتب الإنسانيّة. أجل، إنها تخلّصنا من العجز والوهن، ومن السقوط والانحطاط والتردّي إلى أسفل سافلين، وترقى بنا إلى أعلى علّيّين.

وسـنحاول في الفصول التالية عرض الرسائل النورانيّة للقرآن الكريم حول هذه المسائل.